ولما وقع ما وقع من الأمر العظيم وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم لم يزدهم ذلك إلا كفرا وعنادا وبعدا عن الحق .

قال ا تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف : { وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال موسى لقومه استعينوا با واصبروا إن الأرض  يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون } .

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي ا موسى عليه السلام ومقابلته بدل التصديق بما جاء به والكفر والرد والأذي .

قالوا : { أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك } يعنون - قبحه ا - أن دعوته إلى عبادة ا وحده لا شريك له والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط لعنهم ا وقرأ بعضهم : { ويذرك وآلهتك } أي وعبادتك ويحتمل شيئين : أحدهما ويذر دينك وتقويه القراءة الأخرى والثاني : ويذر أن يعبدك فإنه كان يزعم أنه إله لعنه ا .

{ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم } أي لئلا يكثر مقاتلتهم { وإنا فوقهم قاهرون } أي غالبون .

{ قال موسى لقومه استعينوا با واصبروا } أي إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم { إن الأرض  يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين } أي فكونوا أنتم المتقين تكون لكم العاقبة كما قال في الآية الأخرى : { وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم با فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على ا توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين } .

وقولهم : { قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا } أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا { قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون } .

وقال ا تعالى في سورة حم المؤمن : { ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب } .

وكان فرعون الملك وهامان الوزير وكان قارون إسرائيليا من قوم موسى إلا أنه كان على دين فرعون وملئه وكان ذا مال جزيل جدا كما ستأتي قصته فيما بعد إن شاء ا تعالى .

{ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما

كيد الكافرين إلا في ضلال } وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بني إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها ويصولون على القبط بسببها وكانت القبط منهم يحذرون فلم ينفعهم ذلك ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون .

{ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد } ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم : " صار فرعون مذكرا " وهذا منه فإن فرعون في زعمه خاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام ! .

{ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب } أي عذت با ولجأت إليه واستجرت بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره على بسوء وقوله : { من كل متكبر } أي جبار عنيد لا يرعوى ولا ينتهى ولا يخاف عذاب ا وعقابه لأنه لا يعتقد معادا ولا جزاء ولهذا قال : { من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب } .

* * * .

{ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي ا وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن ا لا يهدي من هو مسرف كذاب * يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس ا إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد } .

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون وكان يكتم إيمانه من قومه خوفا منهم على نفسه وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظا ومعنى وا أعلم .

قال ابن جريج قال ابن عباس : لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا والذي جاء من أقصا المدينة وامرأة فرعون رواه ابن أبي حاتم .

وقال الدارقطني لا يعرف من اسمه " شمعان " بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون حكاه السهيلي .

وفي تاريخ الطبراني : أن اسمه " خير " فا أعلم .

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون - لعنه ا - بقتل موسى عليه السلام وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى فتلطف في رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب فقال على وجه المشورة والرأي .

وقد ثبت في الحديث عن رسول ا A أنه قال : [ أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ] وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لا أشد جورا منه وهذا الكلام لا أعدل منه ! لأنه فيه عصمة نبي ويحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه وصرح لهم بما كان يكتمه والأول أظهر وا أعلم .

قال : { أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله } أي من أجل أنه قال ربي الله فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام والإحترام أو الموادعة وترك الإنتقام .

يعني لأنه : { قد جاءكم بالبينات من ربكم } أي بالخوارق التي دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه : { إن يك كاذبا فعليه كذبه } .

ولا يضركم ذلك { وإن يك صادقا } وقد تعرضتم له { يصبكم بعض الذي يعدكم } أي وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به فكيف بكم إن حل جميعه عليكم ؟ وهذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف والإحتراز والعقل التام .

وقوله : { يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض } يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم ! .

وكذا وقع لآل فرعون ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ثم حولوا إلى البحر مهانين ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين .

ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل : { يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض } أي عالين على الناس حاكمين عليهم { فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا } ؟ أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الممالك .

{ قال فرعون } أي في جوابه هذا كله : { ما أريكم إلا ما أرى } أي ما أقول لكم إلا ما عندي { وما أهديكم إلا سبيل الرشاد } .

وكذب في كل من هذين القولين وهاتين المقدمتين فإنه قد كان يتحقق في باطنه وفي نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند الله لا محالة وإنما كان يظهر خلافه بغيا وعدوانا وعتوا وكفرانا .

قال الله تعالى إخبارا عن موسى : { قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا * وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا } .

وقال تعالى : { فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين * وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين } .

وأما قوله : { وما أهديكم إلا سبيل الرشاد } فقد كذب أيضا فإنه لم يكن على رشاد من الأمر بل كان على سفه وضلال وخبل وخيال فكان أولا ممن يعبد الأصنام والأمثال ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه فيما زعم من الكفر والمحال في دعواه أنه رب تعالى الله ذو الجلال ! .

قال ا تعالى : { ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك بمصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين } .

وقال تعالى : { فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه ا نكال الآخرة والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى } .

وقال تعالى : { ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد * يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا في هذه لعنة يوم القيامة بئس الرفد المرفود } .

والمقصود بيان كذبه في قوله : { ما أريكم إلا ما أرى } وفي قوله : { وما أهديكم إلا سبيل الرشاد } .

* * * .

{ وقال الذي آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب * مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما ا يريد ظلما للعباد * ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من ا من عاصم ومن يضلل ا فما له من هاد * ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن .

يبعث ا من بعده رسولا كذلك يضل ا من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون في آيات ا بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند ا وعند الذين آمنوا كذلك يطبع ا على كل قلب متكبر جبار } .

يحذرهم ولي ا إن كذبوا برسول ا موسى أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات مما تواتر عندهم وعند غيرهم مما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنباء لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء وما أنجى ا من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة وهو يوم التناد أي حين ينادى الناس بعضهم بعضا حين يولون إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيلا : { يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر } وقال تعالى : { يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأي آلاء ربكما تكذبان } .

وقرأ بعضهم : { يوم التناد } بتشديد الدال أي يوم الفرار ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويحتمل أن يكون يوم يحل ا بهم البأس فيودون الفرار ولات حين مناص { فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون } .

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف في بلاد مصر وما كان منه من الإحسان إلى الخلق في دنياهم وأخراهم وهذا من سلالته وذريته ويدعو الناس إلى توحيد ا وعبادته وألا يشركوا به أحدا من بريته وأخبر عن أهل الديار المصرية في ذلك الزمان وأن من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ولهذا قال : { فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن .

يبعث ا من بعده رسولا } أي وكذبتم في هذا ولهذا قال : { كذلك يضل ا من هو مسرف مرتاب * الذين يجادلون في آيات ا بغير سلطان أتاهم } أي يردون حجج ا وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من ا فإن هذا أمر يمقته ا غاية المقت أي يبغض من تلبس به من الناس ومن اتصف به من الخلق { كذلك يطبع ا على كل قلب متكبر جبار } قرئ بالإضافة وبالنعت وكلاهما متلازم : أي هكذا إذا خالفت القلوب الحق - ولا تخالفه إلا بلا برهان - فإن ا يطبع عليها أي اختمر عليها بما فيها .

* * * .

{ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب } .

كذب فرعون موسى عليه السلام في دعواه أن ا أرسله وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه في قوله لهم : { ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا } وقال هاهنا : { لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السموات } أي طرقها ومسالكها { فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا } ويحتمل هذا معنيين : أحدها وإني لأظنه كاذبا في قوله أن للعالم ربا غيري والثاني في دعواه أن ا أرسله والأول أشبه بظاهر حال فرعون فإنه كان ينكر ظاهرا إثبات الصانع والثاني أقرب إلى اللفظ حيث قال : { فأطلع إلى إله موسى } أي فأسأله هل أرسله أم لا ؟ { وإني لأظنه كاذبا } أي في دعواه ذلك وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام وأن يحثهم على تكذيبه .

قال ا تعالى : { وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل } وقرئ : { وصد عن السبيل } { وما كيد فرعون إلا في تباب } .

قال ابن عباس ومجاهد : يقول : إلا في خسار أي باطل لا يحصل له شيء من مقصوده الذي رامه فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبدا - أعني السماء الدنيا - فكيف بما بعدها من السموات العلى ؟ وما فوق ذلك من الإرتفاع الذي لا يعلمه إلا ا D ؟ وذكر غير واحد من المفسرين أن هذا الصرح وهو القصر الذي بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه وأنه كان مبنيا من الآجر المشوي بالنار ولهذا قال : { فأوقد لي يا هامان على الطين

فاجعل لي صرحا } .

وعند أهل الكتاب : أن بني إسرائيل كانوا يسخرون في ضرب اللبن وكان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شيء مما يحتاجون إليه فيه بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه وتبنه وماءه ويطلب منهم كل يوم قسط معين إن لم يفعلوه ضربوا وأهينوا غاية الإهانة وأوذوا غاية الأذية ولهذا قالوا لموسى : { أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون } فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط وكذلك وقع وهذا من دلائل النبوة .

* * * .

ولنرجع إلى نصيحة المؤمن وموعظته واحتجاجه .

قال ا تعالى : { وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار * من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب } .

يدعوهم Bه إلى طريق الرشاد الحق وهي متابعة نبي ا موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ثم زهدهم في الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة ورغبهم في طلب الثواب عند ا الذي لا يضيع عمل عامل لديه القدير الذي ملكوت كل شيء بيديه الذي يعطي على القليل كثيرا ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها - مؤمنا قد عل الصالحات - فله الدرجات العاليات والغرف الآمنات والخيرات الكثيرة الفائقات والأرزاق الدائمة التي لا تبيد والخير الذي كل ما لهم منه في مزيد .

ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه فقال : { ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر با وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لا جرم إنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى ا وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى ا إن ا بصير بالعباد * فوقاه ا سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها عدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب } .

كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض الذي يقول للشيء كن فيكون وهم يدعونه إلا عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون .

ولهذا قال لهم على سبيل الإنكار : { ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر با وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار } .

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى ا من الأنداد والأوثان وأنها لا تملك من

نفع ولا إضرار فقال : { لا جرم إنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى ا وأن المسرفين هم أصحاب النار } أي لا تملك تصرفا ولا حكما في هذه الدار فكيف تملكه يوم القرار ؟ وأما ا D فإنه الخالق الرازق للأبرار والفجار وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم إلى النار .

ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله : { فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى ا إن ا بصير العباد } .

قال ا : { فوقاه ا سيئات ما مكروا } أي بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم با ومكرهم في صدهم على سبيل ا مما أظهروا للعامة من الخيالات والمحالات التي ألبسوا بها على عوامهم وطعامهم ولهذا قال : { وحاق } أي أحاط { بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها عدوا وعشيا } أي تعرض أرواحهم في برزخهم صباحا ومساء على النار { ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب } وقد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر في التفسير و الحمد .

والمقصود أن ا تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم وإرساله الرسول إليهم وإزاحة الشبه عنهم وأخذ الحجة عليهم منهم بالترهيب تارة والترغيب أخرى كما قال تعالى : { ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند ا ولكن أكثرهم لا يعلمون * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين * فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين } .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون وهم قومه من القبط بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع وقوله : { ونقص من الثمرات } وهي قلة الثمار من الأشجار { لعلهم يذكرون } أي فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم { فإذا جاءتهم الحسنة } والخصب ونحوه { قالوا لنا هذه } أي هذا الذي نستحقه وهذا الذي يليق بنا { وإن تصيبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه } أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون في الأول إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق إذا جاء الشر أسندوه إليه وإن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم قال ا تعالى : { ألا إنما طائرهم عند ا } أي ا يجزيهم على هذا أوفر الجزاء { ولكن أكثرهم لا يعلمون } .

{ وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين } أي مهما جئتنا به من الآيات - وهي الخوارق للعادات - فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ولو جئتنا بكل آية وهكذا أخبر ا عنهم في قوله : { إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل

آية حتى يروا العذاب الأليم } .

قال ا تعالى : { فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين } أما الطوفان فعن ابن عباس : هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار وبه قال سعيد بن جبير وقتادة والسدي والضحاك وعن ابن عباس وعطاء هو كثرة الموت وقال مجاهد : الطوفان الماء والطاعون على كل حال وعن ابن عباس : أمر طاف بهم .

وقد روى ابن جرير وابن مردويه من طريق يحيى بن يمان عن المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة عن النبي A أنه قال : [ الطوفان الموت ] وهو غريب .

وأما الجراد فمعروف وقد روى أبو داود عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي قال : سئل رسول ا عن الجراد فقال : [ أكثر جنود ا لا آكله ولا أحرمه ] وترك النبي A أكله إنما هو على وجه التقذر له كما ترك أكل الضب وتنزه عن أكل البصل والثوم والكراث لما ثبت في الصحيحين عن عبد ا بن أبي أوفي قال : غزونا مع رسول ا A سبع غزوات نأكل الجراد وقد تكلمنا على ما ورد فيه من الأحاديث والآثار في التفسير .

والمقصود أنه استاق خضراءها فلم يترك لهم زراعا ولا ثمارا ولا سبدا ولا لبدا وأما القمل فعن ابن عباس : هو السوس الذي يخرج من الحنطة وعنه أنه الجراد الصغار الذي لا أجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وقال سعيد بن جبير والحسن : هو دواب سود صغار وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : القمل هي البراغيث وحكى ابن جرير عن أهل العربية : أنها الحمنان وهو صغار القردان فوق القمامة فدخل معهم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش وفسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف وقرأها الحسن البصري كذلك بالتخفيف .

وأما الضفادع فمعروفة لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع .

وأما الدم فكان قد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل شيئا إلا وجدوه دما عبيطا ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دما في الساعة الراهنة .

هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل .

* * * .

قال محمد بن إسحاق : فرجع عدو ا فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا ثم أبي إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر فتابع ا عليه بالآيات فأخذه بالسنين : فأرسل عليه

الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات فأرسل الطوفان - وهو الماء - ففاض على وجه الأرض ثم ركد لا يقدرون علي أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا .

فلما بلغهم ذلك : { قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل } .

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا أرسل ا عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل ا عليهم القمل فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمضى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار .

فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا فأرسل ا عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه .

فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا فأرسل ا عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما عبيطا وقال زيد بن أسلم : المراد بالدم الرعاف رواه ابن أبي حاتم .

قال ا تعالى : { ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين } .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والإستكبار عن اتباع آيات ا وتصديق رسوله مع ما أيده به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التي أراهم ا إياها عيانا وجعلنا عليهم دليلا وبرهانا .

وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل ا عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون ويكذبون ويعدون ولا يفون : { لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل } فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل .

هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإعذار إليهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالا وسلفا لمن أشبههم من الكافرين ومثلا لمن اتعظ من عباده المؤمنين .

كما قال تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين في سورة حم والكتاب المبين : { ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين * فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون * وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون * فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون * ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين } .

يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم فإذا هم منها يضحكون وبها يستهزئون وعن سبيل ا يصدون وعن الحق ينصرفون فأرسل ا عليهم الآيات تترى يتبع بعضها بعضا وكل آية أكبر من التي تتلوها لأن التوكيد أبلغ مما قبله .

{ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون } لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصا ولا عيبا لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ولهذا خاطبوه به في حان احتياجهم إليه وضراعتهم لديه قال ا تعالى { فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون } .

ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها وهي الخلجانات التي يكسرونها أيام زيادة النيل ثم تبجح بنفسه وحليته وأخذ يتنقص رسول ا موسى عليه السلام ويزدريه بكونه { لا يكاد يبين } يعني كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال وجمال ولم تكن مانعة له أن كلمه ا تعالى وأوحى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه .

وتنقصه فرعون - لعنه ا - بكونه لا أساور في يديه ولا زينة عليه ! وإنما ذلك من حلية النساء لا يليق بشهامة الرجال فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلا وأتم معرفة وأعلى همة وأزهد في الدنيا وأعلم بما أعد ا لأوليائه في الأخرى ؟ .

وقوله : { أو جاء معه الملائكة مقترنين } لا يحتاج الأمر إلى ذلك فإن كان المراد أن تعظمه الملائكة فالملائكة يعظمون ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير كما جاء في

الحديث : [ إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والتسليم والتكريم ! ؟ .

وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوي الألباب ولمن قصد إلى الحق والصواب ويعمى عما جاء به من البينات والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب وطبع على قلبه رب الأرباب وختم عليه بما فيه من الشك والإرتياب كما هو حال فرعون القبطي العمي الكذاب .

* * * .

قال ا تعالى : { فاستخف قومه فأطاعوه } أي استخف عقولهم ودرجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية لعنه ا وقبحهم { إنهم كانوا قوما فاسقين * فلما آسفونا } أي أغضبونا { انتقمنا منهم } أي بالغرق والإهانة وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة والهوان بعد الرفاهية والنار بعد طيب العيش عياذا با وسلطانه القديم من ذلك .

{ فجعلناهم سلفا } أي لمن اتبعهم في الصفات { ومثلا } أي لمن اتعض بهم : خاف من وبيل مصرعم ممن بلغه جلية خبرهم وما كان من أمرهم كما قال ا تعالى : { فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين * وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن يكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون * وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين } .

يخبر تعالى أنه لما استكبروا عن اتباع الحق وادعى ملكهم الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم فانتقم منهم أشد الإنتقام وأغرقه هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد ولم يبق منهم ديار بل كل قد غرق فدخل النار وأتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين ويوم القيامة بئس الرفد المرفود و يوم القيامة هم من المقبوحين